حوليـات

جـامعة الجزائـر

العدد 20 . الجزء 2

ديسمبر 2011

مدرسة النحاة الصوتية

سيبويه وابن جني أنموذجا

الأستاذة: فوزية سرير عبد الله

أستاذة مكلفة بالدروس

كلية الآداب و العلوم الاجتماعية

جامعة سعد دحلب البليدة

عالج علماء العربية القدامى بعض المسائل التي هي من صميم الدراسات الصوتية في مؤلفاتهم النحوية في باب جعلوه في آخرها أطلقوا عليه (باب الإدغام) إلا (ابن جني) الذي خصّ هذا الفرع العملي بمؤلف مستقل هو (سرّ صناعة الإعراب)، و تحدّث هؤلاء نحو (سيبويه) و(ابن دريد) و(ابن جني) وغيرهم عن أعضاء الجهاز النطقي عند الإنسان ووصفوها وصفا دقيقا بالاعتماد على آلية النطق، لكنهم لم يتحدثوا صراحة عن جهاز النطق الذي يحدّد عندهم من الحلق إلى الشفتين، "و لما كانت اللغة في نظر الخليل أصواتا ذات دلالة، وكان الفم من الحلق إلى

الشفتين هو الآلة التي تطلق هذه الأصوات فمن الطريف أنّ ترتيب الحروف على حسب مواضع خروجها داخل الفم، و أن يكون مبتداها في أقصى الحلق و منتهاها في رأس الشفاه."[1]

ولعلّ أول خطوة في الدرس الصوتي يمثّلها النص الذي ينسب إلى أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ) الذي عمل على تنقيط المصحف الشريف قائلا لذلك الغلام الذي اختاره للقيام بهذه المهمة و هو من أفصح القبائل العربية:" خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط نقطة واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله، فإن أتبعت شيئا من هذه الحركات غنّة فانقط نقطتين." [2] وهذا النص الذي يعدّ من الإشارات المهمة في نشأة علم الأصوات تلته مرحلة النشوء التدريجي إلى أن جاء (سيبويه) الذي ضمّن كتابه مادة صوتية دقيقة استقى منها النحويون أسس علم الأصوات في قواعده و تطبيقاته.

"وعلى الرغم من أنّ ما جاء به سيبويه من مادة صوتية مهمة تمثل نتاج الفكر الصوتي عند العرب قد نسبه بعض الباحثين إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي تتلمذ سيبويه على يديه، إلا أنّ هذا لا يعني مصادرة حقّ سيبويه في الإبداع في هذا الجانب، لاسيما أنّ ترتيب سيبويه لمادته الصوتية فضلا عن الموضوعات التي عالجها تكاد تختلف كليّا عن ترتيب الخليل و من تبعه من علماء المدرسة الصوتية المعجمية." [3] فعدد المخارج عند المعجميين تلامذة الخليل سبعة عشر مخرجا، وعند النحاة الذين يمثلهم (سيبويه) ومن جاء بعده كـ(ابن جني) ستة عشر مخرجا بإسقاط مخرج حروف المدّ واللين، والغريب أنّ (ابن جني) الذي يذهب إلى أنّ عدد المخارج ستة عشر مخرجا نجده تفطن إلى أنّ هذا الصنف من الحروف يختلف عن الباقي قائلا:" والحروف التي اتسعت مخارجها ثلاثة: الألف، ثم الياء، ثم الواو، وأوسعها وألينها الألف" [4] ثم يخص هذه الحروف بدراسة مفصّلة منفصلة تحت عنوان [الحركات أبعاض حروف المدّ و اللين].

والملاحظ أنّ المعجميين و النحاة قد اختلفوا في ترتيب مخارج بعض الحروف وهو ما نستنتجه من إطلاعنا على ميراث المدرستين. يقول سيبويه في مستهلّ **باب الإدغام:** " هذا باب عدد الحروف العربية ومخارجها و مهموسها و مجهورها و أحوال مجهورها و مهموسها واختلافها"[5]، وهو يذهب إلى أنّ أصل عدد حروف العربية تسعة وعشرون حرفا، وهو يرتّبها في تصعّدها على النحو الآتي:" الهمزة و الألف والهاء والعين والحاء و الغين و الخاء و الكاف والقاف والضاد والجيم والشين والياء واللام والراء والنون والطاء والدال والتاء والصاد والزاي والسين والظاء والذال و الثاء والفاء والباء والميم والواو" [6]، و هذه الحروف الأصلية يضاف إليها حروف فرعية و بذلك تصبح خمسة و ثلاثين حرفا " وهي كثيرة يؤخذ بها و تستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي النون الخفيفة و الهمزة التي بين بين والألف التي تمال إمالة شديدة والشين التي كالجيم والصاد التي تكون كالزاي وألف التفخيم يعني بلغة أهل الحجاز في قولهم الصلاة والزّكاة والحياة." [7] وهنا يذكر (سيبويه) الحروف المستحسنة ولا يمثل لأيّ حرف منها سوى ألف التفخيم.

ويضاف للحروف الأصلية التسعة والعشرين والستة الفرعية المستحسنة سبعة فروع غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى لغته ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وهي تتمثل في " الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، و الضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والظاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء" [8]، وبهذا تتم اثنتين وأربعين حرفا، وهذه الحروف جميعها الأصلية والفرعية المستحسنة وغير المستحسنة لا تتبيّن إلا بالمشافهة.

ثم ينبّه (سيبويه) على سمة تميّزت بها الضاد الضعيفة دون غيرها من الحروف، فهي"تتكلّف من الجانب الأيمن و إن شئت تكلّفتها من الجانب الأيسر وهو أخفّ لأنّها من حافة اللسان مطبقة"[9] والعلّة في أنّ الضاد تتكلّف من الجانبين الأيمن والأيسر أنّك:" جمعت في الضاد تكلّف الإطباق مع إزالته عن موضعه وإنّما جاز هذا فيها لأنّك تحوّلها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين وهي أخفّ لأنّها من حافّة اللسان وأنّها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها فتستطيل حين تخالط حروف اللسان فسهّل تحويلها إلى الأيسر لأنّها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن ثم تتسلّ من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان كما كانت كذلك في الأيمن."[10]

هذا بالنسبة لعدد حروف العربية التي تنقسم إلى أصلية وأخرى فرعية، ومن الفرعية ما هو مستحسن في لغة من ترتضى عربيته، وورد به القرآن الكريم، والشعر الفصيح ومأثور الكلام، وأخرى غير مستحسنة ولا ترتضى في لغة جيّدة، وهذه الحروف كلّها تتبيّن بالمشافهة.بعد هذا المدخل ينتقل (سيبويه) إلى الحديث عن مخارج حروف العربية، ومذهبه أنّ عددها ستة عشر مخرجا[11] ثم يفصّل بدقّة مخرج كل حرف من الحروف التسعة والعشرين على حده، وكيفية نطقه بدء من الحلق إلى الشفتين، غير مهمل مخرج الحرف الأغنّ.

ومصطلح مخرج يطلق على " النقطة التي يلتقي عندها طرفان من جدران أعضاء النطق ليمرّ الهواء بينهما" [12] ومن هذا التعريف نرى أنّ الحديث عن مخارج الحروف يتطلب منّا القيام بوصف تشريحي لهذه الآلة المنتجة للصوت البشري المتمثلة في جهاز النطق.

وأثناء حديث (سيبويه) عن مخارج الحروف يذكر بعض أعضاء جهاز النطق، منها الظاهرة والخفيّة، والتي تلعب دورا هاما في إخراج الأصوات، وكان ممّا ذكره الحلق و قد قسّمه إلى أقصاه ووسطه وأدناه، واللسان وهو ينقسم عنده إلى أقصى اللسان، و وسط اللسان، وحافة اللسان، و طرف اللسان، و ظهر اللسان. أما الحنك فقد ذكر منه الحنك الأعلى، ووسط الحنك الأعلى، أما الثنايا فذكر منها أصول الثنايا، وأطراف الثنايا و أطراف الثنايا العلى، وقد ذكر من الأسنان الضاحك والناب والرباعية، أما الشفاه فذكر منها باطن الشفة السفلى، وما بين الشفتين، و ذكر أيضا الخياشيم.

هذه هي أعضاء جهاز النطق التي ذكرها (سيبويه) أثناء حديثه عن مخارج أصوات العربية التسعة والعشرين، والتي تتوزع عنده على: الحلق الذي يجعل فيه ثلاثة مخارج: أقصى الحلق: مخرج الهمزة و الهاء و **الألف** وسط الحلق: مخرج العين والحاء، أدناها مخرجا من الفم: مخرج الغين و الخاء.

أما مخارج حروف الفم فهي تتمثل عنده في:

- من أقصى اللسان و ما فوقه من الحنك الأعلى القاف، ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا و مما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف، و من وسط اللسان بينه و بين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم و الشين و الياء، و من بين أول حافة اللسان و ما يليه من الأضراس مخرج الضاد، و من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها و بين ما يليها من الحنك الأعلى، و ما فويق الضاحك و الناب و الرباعية و الثنية مخرج اللام، و من طرف اللسان بينه و بين ما فويق الثّنايا مخرج النون، و من مخرج النون غير أنّه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام مخرج الراء، و مما بين طرف اللسان و أصول الثنايا مخرج الطاء و الدال و التاء، و مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي و السين و الصاد، و مما بين طرف اللسان و أطراف الثنايا مخرج الظاء و الذال و الثاء، و من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العلى مخرج الفاء، و مما بين الشفتين مخرج الباء و الميم والواو، ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة.

و ما نلاحظه على هذه المخارج أنّ سيبويه لم يذكر فيها مخارج حروف المدّ واللين، إذ اكتفى بذكر مخارج الياء المتحركة و الواو المتحركة، في حين عدّ الخليل الحروف الأربعة الواو و الياء و الألف اللّيّنة و الهمزة قسما آخر

و اصطلح على تسميتها بالحروف الجوف " لأنّها تخرج من الجوف، فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان، و لا من مدارج الحلق، و لا من مدرج اللهاة، و إنّما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيّز تنسب إليه إلا الجوف."[13]

و هذا الخط الذي سار عليه سيبويه لم يلتزم به علماء هذه المدرسة بل حاد بعضهم عن منهجه، بإضافة بعض الإثراء على ما قاله تمثل هذا في إعادة ترتيب الحروف أو تغيير في العبارات المفسرة من ذلك (ابن جني ت 293هـ) الذي يتفق معه في عدد المخارج نجده يختلف في بعض الأحيان في ترتيبها من ذلك جعله الراء قبل النون، و في توضيحه لمخارج الحروف يعكس الترتيب و يوافق (سيبويه) بجعله النون قبل الراء، وقد أثنى على ترتيب (سيبويه).

وذكر عدم موافقته ترتيب (الخليل) قائلا بعد ذكره ترتيب الحروف:" فهذا هو ترتيب الحروف على مذاقها و تصعّدها و هو الصحيح فأما ترتيبها في كتاب العين ففيه خطل و اضطراب ومخالفة لما قدّمناه آنفا ممّا رتّبه سيبويه و تلاه أصحابه عليه، و هو الصواب الذي يشهد التأمل له بصحته."[14]

ثم يشرع (ابن جني) في ذكر مخارج الحروف مستهلا حديثه بالحروف الحلقية، " فأوله من أسفله مخرج الهمزة و الألف و الهاء، هكذا يقول سيبويه. " ثم يناقش فساد قول (أبي الحسن) من أنّ الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها مستدلا على صحة ترتيب (سيبويه) قائلا:" أنّك متى حرّكت الألف اعتمدت على أقرب الحروف منها إلى أسفل، فقلبتها همزة، و لو كانت الهاء معها لقلبتها هاء."[15]

لكن المتأمل في تعريف الصوت الذي أثبته (ابن جني) في مؤلفه (سرّ صناعة الإعراب) أين يذكر أنّ الصوت يخرج مع النّفس، " اعلم أنّ الصوت عرض يخرج مع النّفس مستطيلا متصلا، حتى يعرض له في الحلق والفم و الشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده و استطالته" [16] والنّفس مصدره الصدر، وعلى هذا نرجّح أن يكون أول عضو يشارك في عملية التصويت هو الصدر، ولعلّ عدم التصريح به هنا يعود إلى أنّه لا يحوي مخارج.

و بالنسبة لحروف الصفير فترتيبها عند (ابن جني) الصاد و الزاي و السين، هذا بالنسبة للحروف الصحاح،و قد بيّن (ابن جني) أثناء حديثه عن مخارج الحروف أنّ الضاد تخرج من أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس، وهذه الضاد امتازت عن بقية الحروف بأنّه في إمكانك أن تخرجها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر من اللسان، و هو ما عبّر عنه قائلا " أن تتكلّفه"[17] و معناه أن تتصنّع إخراجه على غير الحالة العادية له، وهذا الصوت الذي انفردت به اللغة العربية حتى عرفت به، و أسميت "لغة الضاد" وهو كما ترى يتميّز عن بقية الأصوات بأنّه يكون من حافة اللسان، أو من جانبيه الأيمن أو الأيسر، و لولا حركة اللسان و ما قابله من الأضراس لما تمكنت من إصداره، و هذا الوصف لا يوافق نطق العرب اليوم لهذا الصوت، ممّا أثار الكثير من الجدل بين علماء الأصوات المحدثين الذين رأوا بأنّ هذا الصوت اضمحلّ من الألسن المعاصرة التي فقدت نطقه تماما، في حين يرى آخرون أنّه تحوّل إلى ظاء عند قوم، و إلى دال مفخمة عند آخرين، و إلى طاء كما في لهجات المغرب."[18]

والملاحظ أنّ هذا الوصف لحرف الضاد ينطبق على الضاد الضعيفة التي ذكرها (سيبويه) وهي من الحروف الفرعية غير المستحسنة في قراءة القرآن و لا في لغة من ترتضى عربيته. [19]
وعن مخرج حرف الواو يرى بعض المحدثين أنّ الوصف الدقيق يقتضي أن يقال "أنّه من أقصى الحنك لأنّ اللسان يقترب من هذا الموضع عن النطق بالواو" [20]، و اعتذر آخر لما يمكن أن يعدّ عدم دقة ملاحظة، أو خطأ في تحديد المخرج بالقول:" و يبدو أنّ العلماء العرب قد شغلهم وضع الشفتين في النطق بالواو عن تحسّس موضع اللسان مع الحنك و لعل الذي أعان على إغفالهم دور أقصى الحنك واللسان أنّ حركة الشفتين واضحة جدا و أنّ اللسان لا يقترب بصورة واضحة من الحنك"[21] و للتأكّد من هذا جرّبنا مرارا نطق الواو فكان ما لاحظناه هو استدارة الشفتين و حركة جدّ خفيفة للسان لا تكاد تذكر أمام هذه الاستدارة.

أما مخرج حرف النون فقد جعله النحاة مرة بين اللام و الراء، و مرة ثانية وصفوا نونا أخرى أسماها (سيبويه) النون الخفيفة، و(ابن جني) النون الساكنة، مخرجها من الخياشيم و هنا نشير إلى أنّه لا يريد بوصف الساكنة التي تسكن بعد حركة أو التي يمكن تحريكها فتلك سبق الكلام عليها بين اللام والراء، و إنّما يريد بها النون التي تسمع خفيفة من غير إدغام أو إظهار، و وصفها بالساكنة لأنّها حينئذ لا تكون متحركة البتّة و يكون خفاؤها إذا جاءت متبوعة بحرف من خمسة عشر حرفا."[22]

و هكذا تمت مخارج الحروف العربية البالغ عددها عند (سيبويه) و (ابن جني) ستة عشر مخرجا، وقد بيّن كل واحد منهما بدقة كبيرة الأعضاء المساعدة في تحديد المخرج، فمثلا نرى أنّ المخرج الذي يكون بين طرف اللسان والثنايا ثلاث مجموعات تختلف عن بعضها بعضا في الصفات، فبين طرف اللسان

وأصول الثنايا مخرج الطاء و الدال والتاء، و بين الثنايا نفسها و طرف اللسان مجموعة حروف الصفير الصاد و الزاي والسين، و بين طرف اللسان و أطراف الثنايا مجموعة الحروف الظاء و الذال و الثاء، و هكذا نرى أنّه كلّما ابتعدنا عن الثنايا وبمساعدة حركة اللسان ينتج لنا أصوات مختلفة عن بعضها بعضا، و من عرضنا لمخارج أصوات الفم نتبيّن دور اللسان المهم في إنتاج العديد من أصوات العربية، سمة تفطّن لها علماء العربية قديما فأطلقوا على اللغة مصطلح اللسان، فكانوا يقولون " اللسان العربي" وهم يقصدون "اللغة العربية" مصداقا لقوله تعالى:" لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين."[23]

وكان ما امتاز به (ابن جني) عن (سيبويه) هو توضيحه لمخارج الحروف الفرعية المستحسنة، و هي تلك الحروف التي تتردّد بين مخرجين و بالتالي بين صفتين، مبتدئا بالنون الخفيفة أي الساكنة، والتي مخرجها من الخياشيم، بخلاف النون المتحركة التي هي من حروف الفم متميّزة ببعض الغنّة من الأنف، مبيّنا بطريقة تقليدية كيف نتمكن من التمييز بين هذين المخرجين المختلفين، و يدلّك على أنّ النون الساكنة إنّما هي من الأنف و الخياشيم، أنّك لو أمسكت بأنفك ثم نطقت بها لوجدتها مختلّة، و أما النون المتحركة فمن حروف الفم.

ثاني الحروف الفرعية المستحسنة "الهمزة المخففة" و التي يطلق عليها (سيبويه) مصطلح " همزة بين بين" مبيّنا غرض (سيبويه) من هذا قائلا:" أي هي ضعيفة ليس لها تمكّن المحققة و لا خلوص الحرف الذي منه حركتها"[24] إذن هي حرف بين الهمزة و بين الحرف الذي منه حركتها، و تتوقف طبيعة هذه الهمزة على نوع الحركة القصيرة التابعة لها، فهي همزة ضعيفة ضعف الحرف الساكن، أي ليس لها تمكّن المحققة مع ذلك فهي بزنة المحققة، و ما يدعّم هذا الرأي قول الشاعر:

أأَن زمَّ أجمال و فارق جيرة   و صاح غراب البين أنت حزين؟

فوزن "أأَن زمَّ" فعولن، فالهمزة مقابلة لعين فعولن، و هي متحركة و هكذا نرى أنّ هذه الهمزة التي قربت من الساكن تعتدّ في وزن العروض حركة، وهو استدلال علميّ قويّ لجأ إليه (ابن جني) للتعليل لخاصية صوتية تتّصف بها الهمزة المخففة.

و يتمثل الحرف الفرعي الآخر في ألف الإمالة التي تجدها بين الألف و الياء نحو قولك في عالم و خاتم عِالِم و خاِتم.

بالإضافة إلى ألف التفخيم و هي الألف التي تكون بين الألف و بين الواو وعلى هذا كتبوا الصلوة، و الزكوة، و الحيوة بالواو لأنّ الألف مالت نحو الواو.

حرف آخر من الحروف الفرعية المستحسنة هو الشين التي كالجيم فالشين يقلّ تفشيها واستطالتها، و تتراجع قليلا متصعّدة نحو الجيم، أي تقترب قليلا إلى الأمام نحو مخرج الجيم، و الحرف الفرعي الأخير الذي وصفه (ابن جني) هو الصاد التي كالزاي مبيّنا بأنّه الحرف الذي يقلّ همسه عن الصاد و يحدث له ضرب من الجهر لمضارعة الزاي، من مثل قولهم في يصدر و قصد، يزدر و قزد، إذ تخلصها بعض العرب زايا إذا كانت ساكنة، أما إذا كانت متحركة فيجوز فيها إشمامها رائحة الزاي، و هذا كلّه يجوز في حالة ما إذا وقعت الصاد قبل الدال فإن وقعت قبل غيرها لم يجز ذلك فيها.[25]

و بهذا نكون قد أنهينا ذكر مخارج الحروف الأصلية منها و الفرعية المستحسنة دون التعرّض للفروع المستقبحة لأنّها مهملة غير مستعملة و لأنّ الأمر سوف يكون طويلا و خارجا عن غرض الكتاب الذي يسعى فيه (ابن جني) إلى تعليم اللغة العربية الفصحى لا الحديث عن اللهجات و خاصة إذا كانت مرذولة فمن رأينا أنّ مجرّد الإشارة إليها بذكر عددها و التنبيه عليها يكون كافيا للوقاية من الوقوع في استعمالها باعتبارها من اللغة الفصحى.

و كلّ ما يقوله الدارسون وصف القدامى جاء " مقاربا لوصف المحدثين مع زيادة المحدثين لبعض التفصيلات الدقيقة لهذا الجهاز النطقي بفضل ما توافر لهم من أجهزة دقيقة لكشف أعضاء الجهاز النطقي و بيان تفصيلاته الدقيقة التي هيأها لهم التقدّم العلمي الكبير في مجال الطب و المختبرات الصوتية المزودة بالأجهزة."[26]

و بعد الانتهاء من ذكر مخارج الحروف الأصلية يشرع أصحاب هذه المدرسة منهم (سيبويه) و (ابن جني) مباشرة في ذكر صفات الحروف.

<u>صفات الحروف</u>: إنّ المدقّق في الأصوات لا يجد صوتا يشبه غيره تمام الشّبه، فالصوت إن اشترك مع صوت آخر أو صوتين أو أكثر في المخرج، فإنّه حتما يختلف عن هذه الأصوات في صفة واحدة على الأقلّ مثل العين و الحاء اللتان هما من مخرج واحد (وسط الحلق)، لكنّنا نجدهما مختلفين و هذا راجع لخاصيتي الجهر والهمس، وهو ما يعرف بصفات الحروف.

يبدأ (سيبويه) بصفة الجهر فعدّد الأصوات المجهورة و التي تبلغ تسعة عشر حرفا هي: الهمزة و الألف والعين و الغين و القاف و الجيم و الياء و الضاد و اللام والنون و الراء و الطاء و

الدال و الزاي و الظاء و الذال و الباء و الميم و الواو [27]، وقولهم: جهور في كلامه: هو من الجهارة و هو ارتفاع الصوت و ظهوره، و منه قوله تعالى:" أرنا الله جهرة" أي عيانا، و منه قولهم جهرتُ البئر إذا أخرجت ما فيها من الحمأة، فأظهرته لمرآة العين." [28] ، ومن جملة الحروف المجهورة حرفان هما الميم والنون يعتمد لهما في الفم و الخياشيم فتصير فيهما غنّة، و قد أحدثت الهمزة الكثير من الجدل بين علماء الأصوات المحدثين، فأخرجها بعضهم من المجهورة، و أدخلها بعضهم في المهموسة و جعلها آخرون لا مهموسة و لا مجهورة.[29]

أما المهموسة فالهاء و الحاء و الخاء و الكاف و الشين و السين و التاء و الصاد والثاء و الفاء فذلك عشرة أحرف.

ثم يفسّر (سيبويه) معنى المصطلحين كلّ على حده " **فالمجهورة** حرف أشبع الاعتماد في موضعه و منع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه و يجري الصوت فهذه حال المجهورة في الحلق و الفم إلا أنّ النون و الميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنّة و الدليل على ذلك أنّك لو أمسكت بأنفك ثم تكلّمت بهما لرأيت ذلك قد أخلّ بهما."[30]

وأما **المهموس** فهو عنده " حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه" [31] إذ يسمح ضعف الاعتماد لهواء النفس أن يجري معه و للتعرف على الحرف المهموس من المجهور نلجأ إلى تكرار الحرف، فإن لم ينقطع مثل قولك: سَسَسَسَ، كَكَكَك، هَهَهَهَ... فهو مهموس و العملية غير ممكنة مع الحرف المجهور، و قد ذكر (ابن دريد) أنّ هذه الحروف "سميت مهموسة لأنّه اتّسع لها المخرج فخرجت كأنّها متفشّية."[32]

وللحروف قسمة أخرى تضم الشديد و الرخو و المتوسط، فعدد الشديد ثمانية، وهي: الهمزة و القاف و الكاف و الجيم و الطاء و التاء و الدال و الباء، و يجمعها في اللفظ " أجدت طبقك".

والحروف التي هي بين الشدّة و الرخاوة فيبلغ عددها عند (سيبويه) صوتا واحدا هو العين قائلا: " وأما العين **فبين الرخوة و الشديدة** تصل إلى الترديد فيها لشبهها بالحاء" [33]، لكن (ابن جني) يعدها ثمانية أحرف و هي:" الألف، والعين، والياء، واللام، والنون، و الراء، و الميم، و الواو، و يجمعها في اللفظ:" لم يرْوِ عنّا"، و إن شئت قلت:" لم يُروِّعنا"."[34]

و يعرّف **الشديد** بأنّه "الحرف الذي يمنع الصوت أن يجري فيه" فلو قلت الحجّ ثم حاولت مدّ صوتك لم يجر ذلك و قد كان (ابن دريد) أكثر توضيحا في تعريفه للحرف الشديد بحيث أشار أنّ الشديد مما تقدر أن تشدّه إذا لفظت به.

ومن الحروف **الرخوة** وهي الهاء والحاء والغين والخاء والشين والصاد والضاد و الزاي و السين و الظاء و الثاء و الذال و الفاء و ذلك إذا قلت الطّس و انقضْ و أشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت." [35] ، أي أنّ الصوت سيمتدّ مع الحروف (السين والضاد) لما امتازت به هذه الحروف من رخاوة، و من هذا يمكن القول بأنّه " يقصد بالشدّة تمام إحصار الصوت عند إسكانه، و بالرخاوة تمام جريه عند إسكانه، و التوسّط هو منزلة بين تمام الانحصار و تمام الجري."[36]

وقد بيّنت الأبحاث الحديثة أنّ الشديد صوت آني، في حين يتميّز الصوت الرّخو بالتّمادي و التواصل، و هو ما تعرفنا عليه مع (سيبويه) هنا.

"ولم يخرج المحدثون عن هذا الإطار في تقسيم الأصوات إلا في التسمية إذ أسموا الشديد بالانفجاري و الرخو بالاحتكاكي و المتوسط بالمائع."[37]

و يدخل ضمن هذه المجموعة نوع آخر من الحروف و هي المطبقة والمستعلية التي نجد (سيبويه) يؤخّر ذكرها بعد **المنحرف و المكرّر واللّيّنة والهاوي** وهي صفات أحادية، فالمطبقة أربعة هي الصاد والضاد والطاء والظاء وما سوى هذه الأحرف فمنفتح غير مطبق، و"الإطباق هو أن ترفع لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له". ثم يفسّر (سيبويه) موضع هذه الحروف التي ننطقها بفضل إطباق ظهر اللسان مع الحنك الأعلى أي ضغط ظهر اللسان بشدّة على الحنك الأعلى قائلا: "و هذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهنّ انطبق لسانك من مواضعهنّ إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف و أما الدال و الزاي و نحوهما فإنّما ينحصر الصوت إذا وضعت لسانك في مواضعهنّ فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان و قد بُيّن ذلك بحصر الصوت"

" و نفسّر الإطباق بأنّه إسهام طبق اللسان و إن شئت ظهره من أقصاه و أدناه مع الحنك من أقصاه و أدناه في إخراج الحرف" [38] و لهذه الحروف أهمية خاصة، فبفضل الإطباق نميّز هذه الحروف عن حروف أخرى مشابهة لها في الصفة، "و لولا الإطباق لصارت الطاء دالا و الصاد سينا و الظاء ذالا و لخرجت الضاد من الكلام لأنّه ليس شيء من موضعها غيرها".

<u>**الغنّة:**</u> و قد خصّ أصحاب مدرسة النحاة الصوتية صوتي النون و الميم بصفة اصطلحوا على تسميتها " بالغنّة " لأنّ هذين الصوتين من الأنف و الفم جميعا، و يفسّر سيبويه هذا الصوت قائلا: " ذلك الصوت غنّة من الأنف فإنّما تخرجه من أنفك و اللسان لازم لموضع الحرف لأنّك لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصوت و هو النون و كذلك الميم" [39]، و لدقّة هذا الوصف يرى بعض المحدثين أن نهج القدامى في وصف هذين الحرفين صحيح مقبول، فعند النطق بالميم و النون يقف الهواء في موقع ما ثم يخرج حرا طليقا من الأنف [40] لذا يعرّفون الغنّة بأنّها " صوت مزيد مركب في جسم النون و الميم يخرج من الخيشوم لا عمل للسان فيه، أي إمكان خروج صوتها من الخيشوم دون الاعتماد على مخرج النون و الميم[41].

كانت هذه هي صفات الحروف التي ذكرها (سيبويه) و هي تدخل ضمن قائمة الحروف الثنائية أو ذات الأضداد مثلما ذكر (ابن جني) الذي نجده أكثر توسعا و تنظيما في صفات الأصوات بحيث قسّمها إلى صفات لها أضداد و صفات لا أضداد لها، و زاد على الصفات التي ذكرها (سيبويه) من الصفات الآتية:

" **الاستعلاء** و **الانخفاض** فالمستعلية سبعة، وهي: الخاء، والغين و القاف، والضاد، و الطاء، و الصاد، و الظاء، و ما عدا هذه الحروف فمنخفض."[42]

ومعنى الاستعلاء أن " تتّصعد في الحنك الأعلى" [43] أي تعتمد لترفع لسانك نحو الحنك الأعلى، و تعرف بهذه الميزة إلى جانب المطبقة التي ذكرناها أعلاه، و هي الضاد، والطاء، والصاد، والظاء، يوجد ثلاثة حروف اتّصفت بالاستعلاء دون الإطباق، و هي الخاء، و الغين، و القاف، و هكذا يصبح عدد المستعلية سبعة، و ما عدا هذه الحروف فيعرف بالمنخفض لأنّه لا يحتاج إلى رفع اللسان نحو الحنك الأعلى لانجازه.

و كلّ حروف المعجم تنقسم إلى **الأصل** و **الزيادة**، و يبلغ عدد حروف الزيادة عشرة، و هي الهمزة، و الألف، و الياء، و الوا، و الميم، و النون، و السين، و التاء، واللام، و الهاء، و تجمع في القول:" اليوم تنساه"، و إن شئت قلت: "هويت السمان"، أو" سألتمونيها"[44]

و يظهر أنّ علماء العربية غير متّفقين حول عدد هذه الحروف، و منهم (أبو العباس) الذي يخرج الهاء من حروف الزيادة بدعوى أنّها تأتي منفصلة لبيان الحركة والتأنيث، و ما يلاحظ أنّ قولنا حروف الزيادة لا نعني به، إذا وجدنا حرفا من هذه الأحرف العشرة في كلمة نقضي بزيادته، بل هناك مقاييس حدّدها (أبو عثمان المازني) في المنصف في (باب ما تجعله زائدا من حروف الزيادة) [45] يعرف بها مواقع الزيادة في كلام العرب، و كيف تكون، و كيف وقعت في كلامهم، مقدّما الأدلة الواضحة عليها، ولقد احتجّ له (ابن جني) بالقول:" و قول أبي عثمان: باب ما تجعله زائدا من حروف الزيادة، يريد به أن حروف الزيادة ليست في كلّ موضع تكون زائدة، و لو كانت في كلّ موضع زائدة لما احتاج إلى تحديد المواضع و لعدّد الحروف وحدها." [46] و هذا القول يزيدنا يقينا أنّ غرض (ابن جني) من قوله حروف الزيادة أن لا تكون هذه الحروف في كلّ المواضع زائدة.

ومن الحروف ذات الصفات الأحادية يذكر (سيبويه) المنحرف، و المكرّر و اللّيّنة و الهاوي و هي التي سنتعرف عليها على الترتيب. **فالمنحرف** " هو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت و لم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة و هو اللام و إن شئت مددت فيها الصوت و ليس كالرّخوة لأنّ طرف اللسان لا يتجافى عن موضعه و ليس يخرج الصوت من موضع اللام و لكن من ناحيتي مستدقّ اللسان فويق ذلك و منها حرف شديد يجري معه الصوت لأنّ ذلك الصوت غنّة من الأنف فإنما تخرجه من أنفك و اللسان لازم لموضع الحرف لأنّك لو أمسكت بأنفك لم يجر معه الصوت و هو النون و كذلك الميم."[47]

" و منها **المكرّر** و هي صفة حرف وحيد و هو الراء، و سمي كذلك لأنّك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتعثّر بما فيه من التكرير"[48] و هو في تعريف (سيبويه) "حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره و انحرافه إلى اللام فتجافى للصوت كالرّخوة و لو لم يكرّر لم يجر الصوت فيه "[49]، و قد ذكر بعض الدارسين أنّ السرّ في تسميته بالحرف المكرّر لأنّه تتكرر ضربات اللسان

على اللثّة تكرارا سريعا، و لأجل هذه الخاصية احتسب في الإمالة حرفين، و هو الحرف الذي يجد بعض الناس صعوبة في نطقه كالأرثّ الذي لا تكاد تستبينها في كلامه [50]، عكس اللام الذي لا تكاد تجده يعتاص على أحد.

ومنها **اللّيّنة** و هي الواو و الياء لأنّ مخرجهما يتّسع لهواء الصوت أشدّ من اتّساع غيرهما كقولك وأى و الواو و إن شئت أجريت الصوت و مددت "[51]

وممّا يذكر (سيبويه) أيضا حرفا يعرف بـ" **الهاوي**" و هو حرف ليّن اتّسع لهواء الصوت مخرجه أشدّ من اتساع مخرج الياء و الواو لأنّك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك و هي الألف ثم الياء ثم الواو"و ما زاده (ابن جني) من الصفات الأحادية الصفات الآتية:

حروف البدل: البدل نوعان: بدل في غير إدغام، و بدل يحدث مع الإدغام.

يبلغ عدد الحروف التي تخص البدل في غير إدغام إحدى عشر حرفا هي [52]: الهمزة، و الألف، و الياء، و الواو، و الميم، و النون، و التاء، و الهاء، و الطاء، والدال، و الجيم، و هذه الحروف يمكن أن يقوم بعضها مقام الآخر، و الملاحظ أنّ عددها يختلف عما نجده عند (سيبويه) في باب (هذا باب حروف البدل في غير أن تدغم حرفا في حرف و ترفع لسانك من موضع واحد) حيث يقول:" و هي ثمانية أحرف من الحروف الأول وثلاثة من غيرها"[53] و هكذا يكون عددها عند (سيبويه) إحدى عشر حرفا.

المشرب: إلى جانب الصفات التي تتصف بها حروف العربية حينما تكون في حالة عزلة عن السياق التي ذكرها (سيبويه) و (ابن جني) نجد هذا الأخير ينفرد بذكر نوع من صفات الأصوات تلاحظ عند الوقف عندما يؤلف بعض هذه الحروف نهاية الكلمة أطلق عليها مصطلح " الحروف المشربة"، و هي صفة تضمّ ثلاثة أنواع هي:

– أولها: حروف القلقة، و هي القاف، و الجيم، و الطاء، و الدال، و التاء هذه الظاهرة تحدث إبّان الوقف بقوة تزحزح الحروف عن مخارجها " لأنّك لا تستطيع الوقوف عليها إلا بصوت و ذلك لشدّة الحفز و الضغط"[54]، فأنت لا تتوقف عليها إلا بصوت تسببه شدّة الحفز و الضغط و ذلك نحو قولك الحقْ، و اذهبْ، و اخلطْ، و اخرجْ... و قد تتفاوت العرب في التصويت فبعضها أشدّ تصويتا من الآخر.

– الصنف الثاني من الحروف المشربة: هي تلك الحروف التي يصاحب النطق بها نفس، نحو النّفخ، دون ضغط كذلك الذي يصاحب النوع الأول، و هذه الحروف هي[55] الزاي، و الظاء، و الذال، و الضاد و لا نجد (ابن جني) في دراسته هذه يطلق عليها أيّ اسم مميّز كالصنف الأول.

– أما الصنف الأخير: فلا يصحبه صوت ولا نحوه، لأنّه لم يضغط و لم يجد منفذا، و هذه الحروف هي: الهمزة، والواو، والعين، والغين، و اللام، و النون، والميم، وما يلاحظ أنّ الصوت الذي يسمع في النوعين الأولين يزول بالتأليف والوصل، وعلّة ذلك أنّ أخذك في صوت

آخر، وحرف سوى الأول يشغلك عن إتباع الحرف الأول صوتا." [56] من نحو قولك: خذْها، و حزْه، واخفضه، واحفظْه، فالصوت في هذه الأمثلة الأخيرة لا يكون محصورا مثلما هو في حروف المجموعة السابقة.

<u>المهتوت:</u> ومن الحروف واحد يعرف بالمهتوت، و أطلق عليه هذا الاسم لما فيه من الضغط و الخفاء. [57] و في ختام حديثه عن صفات الأصوات الأحادية يذكر (ابن جني) نوعا خاصا سبقه (الخليل) إلى الإشارة إليه و لا نعلم سبب إغفال (سيبويه) ذكره و هي **حروف الذلاقة والإصمات**، و التي سميت كذلك لأنّه يعتمد على ذلق اللسان عند النطق بها و هو صدره و طرفه، يبلغ عدد هذا الصنف ستة حروف، و هي اللام، و الراء و النون و الفاء و الباء و الميم و لهذه الحروف سرّ طريف ينتفع به في اللغة، إذ أنّه لا يمكن أن نجد كلمة عربية لا تحتوي على حرفين أو ثلاثة أحرف من هذه الستة"[58]، إلا أنّنا نحصي بعض الكلمات جاءت معراة من هذه الحروف و هي عربية، و هي كلمات شاذة قليلة جدا في اللغة، منها العسجد، و العسطوس، و الدهدقة، و الزهزنة، فإن وجدت كلمات من غير هذه لا تحوي حرفين أو ثلاثة من حروف الذلاقة فاعرف بأنّه ليس من كلام العرب، وسبب وجود هذه الكلمات في العربية يعود إلى خصائص بعض الحروف المؤلفة لها، والتي يرى (ابن جني) أنّها حسّنت التأليف، فالعين ناصعة و تتميّز بلذاذة مستمعها، والقاف امتازت بقوة في اللفظ و صحّة في الجرس، و ما زاد هذه الكلمات قوة وجود الدال والسين[59]،" و ذلك أنّ الدال لانت عن صلابة الضاد، و ارتفعت من خفوت التاء، و السين أيضا لانت عن استعلاء الصاد، و رقّت عن جهر الزاي، فعذبت و انسلّت" [60] و هكذا نرى أنّ بعض خصائص الحروف هو الذي سمح بوجود هذه الكلمات، و هذا النوع من الحروف تحدّث عنه لأول مرة (الخليل) في معجمه (العين) مبيّنا السرّ الطريف الذي تنطوي عليه، و كذا أهميتها في اللغة.[61]

و من المصطلحات التي وردت عند (سيبويه) أيضا و لكن لم يفصل فيها القول وإنّما ورد ذكرها عند حديثه عن تعامليات الإدغام نذكر:

<u>الاستطالة</u>: هي امتداد حافة اللسان عند النطق بالضاد من أول إحدى حافتي اللسان إلى آخرها، أو كلتا الحافتين معا، حتى تصل إلى مخرج اللام، و قد أطلق سيبويه هذه الصفة على صوتي الشين و الضاد حيث يقول:" لأنّ الضاد استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام و الشين ..... و الشين كذلك حتى اتصلت بمخرج الطاء." [62] ، " أي أنّ المستطيل مخرجه محقق فجرى الصوت فيه بقدر طول مخرجه و لم يتجاوزه، فزمنه مساوٍ لمخرجه، و لكن الممدود ليس له مخرج محقّق، فلم يجر إلا في ذاته، و ينقطع بانقطاع النفس أو إرادياً، وليس لانتهاء المخرج، و لذلك كان زمنه أطول من المستطيل."[63]

والملاحظ أنّ صفة الاستطالة أصبحت عند المحدثين صفة لصوت وحيد هو الضاد، لما قد يكون أصاب صوت الشين من تطور في النطق.

الصفير: الصفير في الاصطلاح " صوت مصاحب لحروف الصفير يدلّ على قوتها في السمع"[64]، و قد أطلق أصحاب هذه المدرسة هذا المصطلح على ثلاثة حروف هي الصاد و السين و الزاي، و يقول عنها سيبويه: " و أما الصاد و السين و الزاي فلا تدغمهنّ في هذه الحروف التي أدغمت فيهنّ لأنّهنّ حروف الصفير و هنّ أندى في السمع."[65]

و كان المبرد أول من أوضح معنى هذه الصفة بشكل دقيق و ذلك في حديثه عنها إذ قال:" و من طرف اللسان و ملتقى حروف الثنايا حروف الصفير، و هي حروف تنسلّ انسلالا، و هي السين و الصاد و الزاي." [66] و بهذا تمت دراسة مخارج الأصوات وصفاتها، دراسة لم تكن الغاية منها التمكن من نطق الحروف مفردة بل جعلها علماء العربية مدخلا لدراسة التركيب وهو ما يصرّح به سيبويه قائلا:" و إنّما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام و ما يجوز و ما لا يحسن فيه ذلك و لا يجوز فيه و ما نبدله استثقالا كما تدغم وما تخفيه و هو بزنة المتحرك" [67]، و هو عين ما يراه المحدثون الذين يذهبون إلى أنّ " أصوات اللغة حقائق عضوية تخضع للوصف من حيث المخارج أو الحركات التي يقوم بها الجهاز النطقي، و من حيث الصفات أو الظواهر الصوتية المصاحبة لهذه الحركات النطقية، فلا شكّ في أنّها كذلك تخضع في ردودها و استعمالها و علاقة كلّ صوت منها بالأصوات الأخرى خضوعا تاما لنظام رمزي تتميّز به اللغة التي تستخدم هذه الأصوات عن كلّ لغة أخرى من لغات العالم. و من هنا كانت دراسة الأصوات من وجهة نظر المخارج والصفات مقدمة لدراسة علم التشكيل الصوتي."[68]

. **الهوامش**:

1. الدقاق عمر: مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، منشورات جامعة حلب، ط5، 1977، ص165
2. الداني: المحكم ص 6
3. علاء جبر: المدارس الصوتية ص 52
4. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 8
5. –سيبويه: الكتاب 404/2
6. سيبويه: الكتاب 404/2
7. م. نفسه
8. سيبويه: الكتاب 404/2
9. سيبويه: الكتاب 404/2
10. م. نفسه 2/ 404–405
11. انظر: سيبويه: الكتاب 405/2
11. ظاظا حسن: كلام العرب من قضايا اللغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1976، ص07
12. الخليل: العين 57/1

13. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 45-46

14. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 47

15. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 6

16. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 47

17. النعيمي سعيد حسام: الدراسات اللهجية و الصوتية عند ابن جني ص 308 و انظر أيضا: كانتينو: دروس في علم أصوات العربية ص 87

18. سيبويه: الكتاب 404/2

19. كمال بشر: قسم الأصوات ص 89

20. النعيمي سعيد حسام: الدراسات اللهجية و الصوتية عند ابن جني ص 310-311

21. النعيمي سعيد حسام: الدراسات اللهجية و الصوتية عند ابن جني ص 311

22. النحل الآية 103

23. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 48

24. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 51

25. غلاء جبر: المدارس الصوتية ص 57

26. سيبويه: الكتاب 405/2

7[2]. ابن جني: المنصف في شرح التصريف، تح: إبراهيم مصطفى، شركة مكتبة و مطبعة مصطفى الباي الحلبي و أولاده بمصر، ط1، 1955 (3 أجزاء) ، ج39/1

28. انظر: أنيس إبراهيم: الأصوات اللغوي ص 88

29. سيبويه: الكتاب 405/2

30. سيبويه: الكتاب 405/2

31. ابن دريد: الجمهرة، مكتبة المثنى، بغداد، 4 أجزاء، ج8/1

32. سيبويه: الكتاب 405/2 [1]

33. ابن جني: سرّ صناعة الإعراب 61/1

34. سيبويه: الكتاب 405/2

35. وافي، علي عبد الواحد: فقه اللغة، دار نهضة مصر للطباعة و النشر، الفجالة، القاهرة، ص 167

36. كمال بشر: علم الأصوات ص 297-377

37 النعيمي: الدراسات اللهجية و الصوتية عند ابن جني، ص 318

38. سيبويه: الكتاب 406/2

39. انظر: كمال بشر: علم الأصوات ص349

40..سعاد عبد الحميد: تيسير الرحمن ص 107

41 ابن جني: سرّ صناعة الإعراب 1/ 62

42. ابن جني: سرّ صناعة الإعراب 62/1

43. ابن جني: سرّ صناعة الإعراب 62/1

44. ابن جني: المنصف 98/1

45. ابن جني: المنصف 1/ 98–99

46. سيبويه: الكتاب 406/2

47 ابن جني: سرّ الصناعة 63/1 [1]

48. سيبويه: الكتاب 406/2 [1]

49. ابن جني: سرّ الصناعة 2/ 814

50. سيبويه: الكتاب 2/ 406

51. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 62

52. سيبويه: الكتاب 2/ 313

53. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 63

54 م.ن

55. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 63

56. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 64

57. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 64

58. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 65

59. ابن جني: سرّ الصناعة 1/ 65

60. الخليل بن أحمد: العين 51/1

61. سيبويه: الكتاب 416/2

62. .سعاد عبد الحميد: تيسير الرحمن ص 95

63. سعاد عبد الحميد: تيسير الرحمن ص 91

64. سيبويه: الكتاب 2/ 420 [1]

65. د.علاء جبر: المدارس الصوتية ص 68

66. سيبويه: الكتاب 2406–407

67. حسان تمام: اللغة بين المعيارية و الوصفية ص115